المعتقدات الشعبية

الأرواح:

للعالم الخفي، وأقصد به عالم الأرواح وكل ما لا تراه العين ويدركه الحس من قوى طيبة أو خبيثة، أثر خطير في عقائد أهل الجاهلية، وفي عقائد الشعوب القديمة، وفي أنفس كثير من الناس حتى اليوم، إذ يشغل ذلك العالم في الواقع جزءاً خطيراً من الدين ومن حياة الناس عامة. فهناك صلوات وشعائر وأدعية مكتوبة وغير مكتوبة تتلى وتقال وتقرأ للسيطرة على ذلك العالم، وللانتفاع منه، ولتسخيره في سبيل خير الإنسان ومصلحته، ولتجنب أذى النوع الخبيث منه. وإذا تتبعنا هذه الاعتقادات عند الجاهليين، وجدنا أنها قد كونت الجزء الأكبر من عقيدتهم وديانتهم، وإنها والذبائح من الأصول التي ارتكزت عليها ديانات العرب قبل الإسلام.

والواقع أن الاعتقاد بالأرواح يشغل حيزاً كبيراً من فناء الدين عند الجاهليين، وإن بدا لنا أنه شيء لا علاقة له بالدين. فنحن حين البحث في موضوع العقيدة والدين عند أهل الجاهلية، لا نتحدث بالطبع عن العقيدة والدين بالنسبة إلى معتقداتنا وبالنسبة إلى تفكير الإنسان في القرن الواحد والعشرين، وإنما نتحدث عن رأي أناس عاشوا قبل الإسلام، وعن جماعة أدركت الإسلام، كانت الأرواح في نظرها أكثر أثراً في حياة الفرد من آثر الآلهة فيه، فتقرب وتوسل إليها أكثر من تقربه وتوسله إلى آلهته التي كان يرى أن بيدها مفتاح سعادته وشقائه. وآية ذلك كثرة الكلمات والمصطلحات الجاهلية المتعلقة بها، وما ورد في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي والأخبار من أثر الجن في القوم، حتى تصوروهم آلهة وشركاء للأرباب في إدارة دفة هذا الكون.

هذا، ونحن إن ذكرنا الأرواح، فإننا لا نقصد المعنى المفهوم منها في رأينا، بل نقصد هذا المعنى وشيئاً آخر أعم وأوسع منه، معنى يشمل أيضاً بعض الأحجار والأشجار والآبار والكهوف وأمثال ذلك من أشياء تصوّر أهل الجاهلية أنها تكمن فيها قوة خارقة تستطيع التأثير في حياة الناس، فتقربوا إليها بالزيارات والقرابين وبالتضرع والتوسل والأدعية لقدسيتها ولتلك القدرة العجيبة التي فيها، فهي من حيث النفع أو الضرر كالأرواح: لوجود قوى خارقة غير منظورة فيها، هي من الأرواح، فتقرب إليها الإنسان لذلك، لغرض الاستفادة منها أو دفع أذاها.

وطبيعة الأرواح، طبيعة غير مرئية ولا منظورة، هي لطيفة خفية مستورة. إنما يجوز لبعضها الظهور في صورة أشباح، والتجسم على هيئة الأجساد.

ثم إنها على طبيعتين: شريرة وخيرة، خبيثة وصالحة. من الطبيعة الأولى الشياطين وبعض أنواع الجن، ومن الطبيعة الثانية الملائكة والشطر الثاني من الجن. وأثر الخبيث من الأرواح أوضح وأكثر في عقلية أهل الجاهلية من أثر التفريق الصالح.. وهو شيء منطقي مفهوم، فالإنسان إلى الشر أقرب منه إلى الخير، ذلك أن من طبع الخير عدم إلحاق الأذى بالغير، فلا يخشى منه.

أما الشرير، ففي طبعه إلحاق الضرر والأذى بكل واحد، وفي كل لحظة يراها، لذلك التفتت إليه الأنظار حذراً منه، وخشية من مكره، وتقرّبت وتوددت إليه، لا حباً له، ولا تقرباً إليه لأنه جدير به، بل إنما تملقاً وتزلفا لإبعاد شره، وأمن جانبه على نمط ما يفعله الناس تجاه الأقوياء من الأشرار حيث يتقربون إليهم أو يبتعدون عنهم طمعاً ورهبة، تمشية لأمور معاشهم، لا حباً لهم وإخلاصاً لاستحقاقهم ذلك الحب والإخلاص[1].

الجنّ:

الجنّ من الكلمات السامية القديمة المعروفة عند قدماء الساميين وعند غير الساميين كذلك. والجن قوم مستترون، وكلمة (جنون) من هذا الأصل، ومن معاني أصل الكلمة الاستتار.

١- جواد علي: ٧٠٥/٦-٧٠٦.

ويرى (نولدكه) إن فكرة (الجنّ) فكرة استوردها العرب من الخارج بدليل قولهم أن الجنة من عمل الجنّ، ، ومن تلبس الجنّ بالإنسان. وهي في نظره عقيدة قديمة دخلت العرب من جيرانهم الشماليين، فقد كان الإيرانيون يطلقون على المجنون لفظة (ديوانة) Devana، أي الذي به (ديو) (Dev) من الأصل (ديوه) (Daiva)، ومعناه (Demon)، أي جان. ومن هذه الفكرة دخلت العهد الجديد من الكتاب المقدس. ويأتي (نولدكه) بدليل آخر على إثبات نظريته في أن فكرة الجن فكرة مستوردة من الخارج شيوع قصص بناء جنّ سليمان مدينة (تدمر) بين الجاهليين، وهو قصص ورد من قصة بناء (سليمان) لـ (تامار) في العهد القديم، وتفسير تامار بتدمر عند المفسرين العبرانيين.

ورأى (روبرتسن سمث) وجود شبه كبير بين فكرة العرب عن الجن وبين فكرة بعض القبائل البدائية عن الحيوانات. إن رأي الجاهليين في الجن في رأيه يشبه رأي المتوحشين الطوطميين في الحيوانات الوحشية. وفي القصص الذي يرويه البدائيون عن الحيوانات الوحشية وعن أرواحها وإمكان إحداثها الأمراض والأذى بالإنسان شبه بهذا القصص المروي عن الحيوانات الوحشية، مما جعله يتصور أن فكرة الجنّ عند الجاهليين هي تطور لهذه النظرية القديمة التي تكون عند الطوطميين. انتقلت إليهم من عقيدة سابقة تطورت من عهد عبادة الطوطم. وإن الجن (طوطمية) دون أن يكون لها قوم يشعرون بوجود صلة نسب وقربى بها.

ولكن من الصعب تصور ظهور فكرة الجن عند عرب الجاهلية برمتها من الطوطمية، لأن هناك أموراً عديدة لا يمكن تفسيرها وفق هذه النظرية.

ولكننا نستطيع أن نقول إنها نوع من أنواع الـ (Animism) (الإحيائية).

وقد وجدت عند العبرانيين في عهودهم القديمة، كما كانت عند البابليين وغيرهم[1].

وإذا سكن الجني مع الناس، قالوا: عامر، والجمع عمار، وإن كان ممن يعرض للصبيان، فهم أرواح، فإن خبث أحدهم وتعرم، فهو شيطان. فإن زاد على ذلك، فهو مارد، فإن زاد على ذلك في القوة، فهو عفريت. فإن طهر الجني ونظف ونقي وصار خيراً كله فهو ملك. وهم في الجملة جن وخوافي[2].

١- جواد علي: ٧٠٩/٦.

٢- الجاحظ، الحيوان: ١٩٠/٦-١٩١.

وورد أن الله تزوج الجن، وإن الملائكة هم بناته من هذا الزواج. «قال كبار قريش: الملائكة بنات الله. فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن».

ويفهم من القرآن الكريم أن من العرب من كان يعبد الجن:

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[1]

وذكر (ابن الكلبي) أن (بني مليح) من خزاعة رهط طلحة الطلحات، كانوا ممن تعبد للجن من الجاهليين.[2] ويزعمون أن الجن تتراءى لهم. وذكر أن قبائل من العرب عبدت الجن، أو صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن. ويقولون هم بنات الله.

ويرى (نولدكه) أن الجاهليين لم يتعبدوا للجن، ولم يتخذوها آلهة على نحو ما نفهم من معنى الآلهة، وأن (عبد الجن)، وإن دل على التعبد للجن، إلا أن هذه التسمية لا تدل حتماً على عبادة للجن.

وتتألف الجن من عشائر وقبائل، تربط بينها رابطة القربى وصلة الرحم. وهي كعشائر وقبائل جزيرة العرب، تتقاتل فيما بينها، ويغزو بعضها بعضاً. ولها أسماء ذكر بعضاً من أهل الأخبار، كما أن لها ملوكاً وحكاماً وسادات قبائل. فهي في حياتها تحيا على شكل نظام حياة الجاهليين. وإذا اعتدى معتد على جان انتقمت قبيلة كلها من المعتدي أو المعتدين. وبين قبائل الجن عصبية شديدة، كعصبية القبيلة عند الجاهليين، وهي تراعي حرمة الجوار، وتحفظ الذمم والعقود وتعقد الأحلاف.

فنحن إذن أمام حياة جاهلية مستترة غير منظورة، هي حياة جن جاهليين.

ومن الجن (بنو غزوان)، (بنو غزوان).

وقد تتقاتل طوائف من الجن، فيثير قتالها عواصف الغبار، ولذلك فسر الجاهليون حدوث العواصف والزوابع بفعل الجن. ونجد هذه الفكرة فكرة إحداث الجن للرياح والعواصف في المزامير في أسفار التوراة[3].

١- سورة سبأ: الآية ٤١.

٢- ابن الكلبي/الأصنام، ص ٣٤.

٣- المزمور ١٠٤، الآية الرابعة.

وهم مثل البشر، فيهم الحضر، أهل القرار، وفيهم المتنقلة وهم أعراب الجن، وفيهم من يسير بالنهار، وفيهم من يسير بالليل، وهم (سراة الجن)، و(السراة). قال الشاعر:

أتـــو نــــاري فقلـــت منـــون قـــالوا   سـراة الجـن، قلـت: عمـوا ظلامـاً[1]

وللجن كما للأنس سادة ورؤساء وعظماء، نذكر منهم: الشنقناق والشيصبان.

وعقد الجاهليون أحلافاً مع الجن على التعاون والتعاضد، فقد ذكر أن قوماً من العرب، كانوا قد تحالفوا مع قوم من الجن من (بني مالك بن أقيش).

والجن مثل البشر، يعتدون كذلك، ولا يردعهم من اعتدائهم إلا القوة. وذهب الجاهليون إلى جواز قتل الجن للإنسان. وقد بقي هذا الاعتقاد في الإسلام. ويروي أهل الأخبار أن الجن تتصادق مع الإنسان وتتباغض معه، وقد تقتله، ورووا في ذلك قصصاً، وذكروا أنها قد تتألم لوفاة رجل طيب أو شهير أو محبوب. وقد تعطف على المحتاجين والمعوزين.

وقد يقع الحب بين الجن والإنس. فقد ذكر أن الجنية قد تتبع الرجل تحبه، ويقال لها: (تابعة). ومن ذلك قولهم: معه تابعة، أي من الجن. والتابعة جنيّة تتبع الإنسان. كما يكون للمرأة تابع من الجن، يتبع المرأة يحبها[2].

وقد يسرق الجن الأطفال والرجال والنساء، وللإخباريين قصص يروونه في ذلك. وينسب فقدان الأشخاص في البوادي إلى الجن في الغالب. غير أنها قد تنفع الناس أيضاً، لأن من الجن من هو طيب النفس، مفيد نافع، ولا سيما إذا ما تقرب إليها الإنسان وأحسن إليها[3].

وتقوم الجن بأعمالها بشكل غير منظور في الغالب، لأنها أرواح. وهي قد تحذر الإنسان أو ترشده إلى شيء يريده بصوت جهوري مسموع، يقال له: الهاتف، دون أن يرى الشخص أو الأشخاص صاحب ذلك الصوت. وهي تتنبئ عن المستقبل كما تتحدث عن الماضي[4].

١- تاج العروس: ١٠/١٧٤ (سرى).

٢- اللسان: ٨/٢٩ (تبع).

٣- جواد علي: ٦/٧١٣-٧١٤.

٤- الجاحظ: الحيوان، ٦/٢٠٢.

والجن وإن كانت من الأرواح، أي أنها غير منظورة، إلا أن في استطاعتها أن تتجسم متى شاءت. فتظهر على هيئة جسم من الأجسام. إذ إن للجن قدرة على التشكل بالشكل الذي تريده، تظهر في صورة حيوان أو في صورة إنسان أو غير ذلك. ومن هنا نجد قصص مصاهرة الإنسان للجن، وظهور نسل وأسر من هذا الزواج. وفي استطاعتها أيضاً تغيير الشكل الذي ظهرت به بشكل آخر حيث تشاء. وقد تتمثل الجن في صور حيوانات مشعرة، أي ذات شعر كثيف. وهي تختار الأماكن الموحشة المقفرة في الظلام، مثل رهبان الليل، وتذهب مع الحيوانات التي تنفر من الإنسان مثل النعامة.

والشيطان أخبث أنواع الجن وأذكاها. فتخافه الجن، وأهم مواضع الجن في نظر الجاهليين هي المواضع الموحشة، والأماكن المقفرة التي لا تطرق إلا نادراً والمحلات التي لا تلائم الصحة، والمقابر والأماكن المظلمة والمهجورة، ففي مثل هذه المواطن تنزل الجن، وتفضل الإقامة بها، وسبب ذلك، هو أن الإنسان يخشى هذه المواضع، ويحس بشيء من الخوف والوحشة عن الدخول إليها، فقد يتعرض فيها إلى التهلكة، فأوحى هذا الإحساس إليه أنها (مسكونة)، وأن سكانها هم الجن. وأنهم قد يتعرضون له بسوء إن لم يعرف كيف يسلك سلوكاً طيباً معها، ولذلك صار يتحاشى ولوج هذه المواضع، لا سيما في الليالي المظلمة، وإذا دخلها مضطراً، تخيل الأشباح والأرواح وهي تلعب به كيف تشاء، وتحوم حوله. ومن هنا ظهر عنده القصص المروي عن مواطن الجن.

غير أن مواطن الجن غير محدودة ولا معينة، أنها تسكن كل موضع ومكان، حتى بيوت الناس لا تخلو منها، بل حتى البحار والسماء لا تخلوا منها كذلك، فدولتها إذن على هذا الوصف أوسع من دولة بني الإنسان. وعلى من سكنت الجن بيته ألا يمسها بأذى، ولا يلحق بها أي سوء، وأن يقوم بترضيتها بالبخور وبما شاكل ذلك مما تحبه الجن، وإلا أساءت إليه، وجعلت بيته مؤذياً شؤماً، لا يرى من يسكن فيه أي خير.[1]

وقصص الغول هي من أشهر القصص الجاهلي المذكور عن الجن، ومع خطر الغول وشراسته في رأي الجاهليين، ورد في قصصهم تزوج رجال من الإنس منهم.

١- جواد علي: ٧١٨/٦-٧١٩.

ويرى علماء اللغة أن من معاني (الغول) التلون، والظهور بصور مختلفة والاغتيال. ويرون أن الغول أنثى، وأما ذكرها فيسمى (قطرباً)[١] ولصفة التلون والظهور بصور مختلفة سموا الغول (حيتموراً)، وهو كل شيء لا يدوم على حالة واحدة، ويضمحل كالسراب. وذكر في وصف غدرها بالإنسان أنها إذا أرادت أن تضل إنساناً أوقدت له ناراً، فيقصدها، فتدنوا منه، وتتمثل له في صور مختلفة، فتهلكه روعاً، وإن خلقها خلقة إنسان، ورجلاها رجلا حمار. وذكر أن (الغول) و(السعلاة)، وهما مترادفان، وذكر أن الغيلان جنس من الجن والشياطين، والعرب تسمي الحية الغول وقيل أن (أنياب أغوال) الواردة في شعر لامرئ القيس، الحيات، وقيل: الشياطين.

وأما (السعالي)، وواحدتها السعلاة، فذكر أنها سحرة الجن، وقيل: إن الغيلان جنس منها، وإن الغيلان هي إناث الشياطين، وأنها - أي السعالي - أخبث الغيلان، وأكثر وجودها في الفياض، وإنها إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، وأن الذئب يأكل السعلاة. وذكر أن السعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغول لتفتن السفّار. وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطرف والذهن، سريعة الحركة ممشوقة ممحصة، قالوا: سعلاة.

وقال الأعشى:

ورجالٍ قتلى بجنبي أريك   ونساءٍ كأنهن السعالي[٢]

الشيطان:

والشيطان هو Satan في الإنكليزية، Diabolos في الإغريقية. ويرجع علماء اللغة كلمة (الشيطان) إلى أصل (شطن)، ويقولون إن من معاني هذه الكلمة الخبث، ولما كان الشيطان خبيثاً قيل له (شيطان) ومعنى ذلك أن فكرة خبث الشيطان كانت معروفة لصاحبها قبل التسمية. فلما بحث عن لفظة مناسبة لها اختاروا هذه الكلمة التي تدل على الخبث.

١- بلوغ الأرب: ٢/٢٤٦.

٢- الجاحظ، الحيوان: ٦/١٥٨.

وذكروا الطبري: «الشيطان في كلام العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شي»[1]. ثم قال: «وإنما سمي المتمرد من كل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله وبعده من الخير».

ومن القصص المذكورة، استمد بعض الجاهليين قصصهم عن ذكاء الشيطان وعن حيله. ومن هذا القصص ولا شك استعمل الناس مصطلح (تشيطن) و(الشيطنة) بمعنى الذكاء والحيلة، لما رسخ في ذهنهم من ذلك القصص عن ذكاء الشيطان وسعة حيله وتلاعبه بأذكى البشر[2].

وقد وصف الشيطان بالقبح، فإذا أريد تعنيف شخص وتقبيحه، قيل له: «يا وجه الشيطان» وما هو إلا شيطان، يريدون بذلك القبح، وذلك على سبيل تمثيل قبحه بقبح الشيطان. وقيل: الشيطان حية ذو عرف قبيح الخلقة.

وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر، وتلقنها إياه وتعينها عليه، وتدعي أن لكل فحل منهم شيطاناً يقول الشعر على لسانه، فمن كان شيطانه أمرد كان شعره أجود. وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشأن أن ذكروا لهم أسماء شياطينهم، فقالوا: إن اسم شيطان الأعشى (مسحل)، وللأعشى أشعار فيه، يمدحه ويثني عليه، لأنه يعاونه ويساعده في نظم الشعر فيلقيه عليه إلقاءً. وقد زعم (حسان بن ثابت) أن شيطانه الذي يلهمه الشعر هو من (بني شيصبان) من فصائل الجن. وقد انتقلت هذه العقيدة في إلهام الشعر للشعراء إلى المسلمين كذلك. وقد دعا (جرير) شيطانه الذي يلقي عليه الشعر (إبليس الأباليس)[3].

الهاتف والرئي:

ويؤمن الأعراب بالهاتف، ويتعجبون ممن يرد ذلك. وهم يزعمون أنهم يسمعون الهاتف يخبرهم ببعض الخبر، فيكون صحيحاً.

وزعموا أن لنقل الأخبار، علم بوفاة الملوك وأصحاب النباهة والجاه، وأمثال ذلك من الأمور الخطيرة.

١- تفسير الطبري: ١/ ٣٧.

٢- جواد علي: ٦/ ٧٣٠-٧٣١.

٣- المصدر السابق، ٧٣٤.

وتتردد في الأخبار كلمة (هاتف) و(الهاتف)، بمعنى صوت صادر من مصدر غير مرئي، وردت في مواضع عديدة من القصص الجاهلي، ووردت بعدها الجمل التي قالها الهاتف لمن وجه خطابه إليه. وهي تكهن وأخبار، عن أمر وقع وحدث، أو لتحذير من القيام بعمل ما، أو بإرشاد إلى عمل أو جهة أو ما شابه ذلك من الأمور، وقد تستعمل بمعنى (الرئي) الذي يهتف للكاهن، أو الصوت الذي يزعم أنه يخرج من جوف الصنم[1].

الملائكة:

والملائكة هم روحانيون، أي من أرواح في نظر أهل الجاهلية. ويدل ورود الملائكة في مواضع عديدة من القرآن الكريم ومن الآيات التي تشير إلى مجادلة المشركين ومحادثتهم للرسول في الملائكة، إن فكرة الملائكة كانت معروفة شائعة بينهم، وأن بعض العرب كانوا يعبدونها، كما يظهر ذلك من الآية:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝ ﴾[2]

وقد أشير في القرآن الكريم، إلى أن من الجاهليين من زعم أن الملائكة بنات الله[3].

وتحدث المفسرون في تفسير ذلك، غير أنهم خلطوا في الغالب بين الملائكة والجن.

ولم يأتوا بشيء يذكر عن رأي أهل الجاهلية في الملائكة. وما ذكروه هم عن الملائكة، هو إسلامي، يرجع في سنده إلى أهل الكتاب، ولا سيما القصص الإسرائيلي، ولهذا فهو مما لا يمكن أن يقال عنه أنه يعبر عن رأي الجاهليين. ويظهر أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية، وهم لا يعرفون الكتاب، إلا من كان منهم على دين

١- تاج العروس: ٦/٢٧٣ (هتف).

٢- سورة سبأ: الآيات ٤٠-٤١.

٣- الصافات، الآية ٤٩ وما بعدها. الأسرء، الآية ٤٠.

اليهودية أو النصرانية، أو كان من الحنفاء أو على اتصال بأهل الكتاب، كأمية بن أبي الصلت وأمثاله[1].

السحر:

والسحر من أهم الوسائل التي لجأ إليها البشر وأقدمها منذ أعتق أيامه في التأثير على الأرواح، وقد جعله جزءاً من الدين، لذلك كان من اختصاص رجال الدين، يقومون به في المعابد قيامهم بالشعائر.

وإذا كان معظم الناس في الزمن الحاضر يفرقون بين الدين والسحر، ويعدون السحر شيئاً بعيداً عن الدين، بل هو ضد الدين، فإن قدماء البشر لم يكونوا ينظرون إليه هذه النظرة، كانوا ينظرون إليه كما قلت على أنه جزء مهم من الدين، بل هو أهم جزء فيه وأعظمه، بل مازلنا نجد ديانات القبائل البدائية تعد السحر جزءاً من الدين. وهو كذلك في كل دين بدائي.

وعمل الساحر هو السحر، والسحر في عرف بعض علماء اللغة الإسلاميين هو «عمل يقرب فيه إلى الشيطان». وقد فسر بعض العلماء كلمة (الجبت) في القرآن الكريم بمعنى السحر، كما ذكر أنها تعني الساحر والكاهن والصنم وكل ما عبد من دون اللّه. وفسّر (الطاغوت) بمعنى الشيطان.

وقد وردت كلمة (السحر) و(سحر) و(الساحر) و(الساحرون) و(السحرة) و(مسحوراً) و(مسحورون) في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ويدل ورودها فيه بهذه الكثرة على مبلغ أثر السحر في عقلية الجاهليين. وقد اتهم أهل مكة الرسول بأنه ساحر، حينما أخبرهم بنزول الوحي عليه. وقالوا إنه يستمد وحيه من الشياطين.

وقد جمع البخاري بين الكهانة والسحر، بأن قدّم الكهانة على السحر لأن مرجع الاثنين شيء واحد هو الشياطين.

وقد كان أكثر السحرة في الجاهلية من يهود. يقصدهم الجاهليون من أنحاء بعيدة، لاعتقادهم بسعة علمهم وباختصاصهم فيه. وكان اليهود يسندون علمهم إلى بابل، ولهذا نجد الأحاديث والأخبار العربية ترجع علم السحر إلى بابل واليهود.

١- جواد علي: ٧٣٨/٦.

والفرق بين الكهانة والسحر أن الكهانة تنبؤ، فسند الكاهن هو كلامه الذي يذكره الناس. أما السحر، فإنه عمل في الأكثر، للتأثير في الأرواح، كي تقوم بأداء ما يطلب منها.

ولا يمكن صنع سحر ما لم يقترن بعمل ويصحب هذا العمل كلام مفهوم أو غير مفهوم، وإشارات، يدعي الساحر أنه إنما يقوم به وبالإشارات لتسخير الأرواح، وإن ما يفعله مفهوم عند جنوده، وهم الجن والشياطين.

وللسحر أغراض عديدة، وقد استخدم في معالجة أمور كثيرة، حتى إدارة الملك والقضاء على الأعداء، للسحر فيها صولات وجولات. ومن الطبيعي أن يكون للحب المكانة البارزة فيه، حتى ليكاد يتخصص بهذا الجانب من حياة الإنسان. والساحر في معالجة الحب على طريقتين: إشعال جذوة نار الحب في قلب من يقصد إثارته عنده، أو إطفاء نارها وإخمادها وإماتتها في قلب المسحور. ولكل من الطريقين قواعد وأحكام وأصول يجب تطبيقها بعناية، وإلا بطل فعل السحر.

أما إشعال نيران الحب، فيكون بطرق متعددة يتبعها الساحر، فقد يستعين بالنباتات والأعشاب، يستخرج أدوية منها يقدمها إلى المرأة لتُوجر الرجل إياها سراً. وقد يستعين بالجمر يقرأ عليه، ثم يرمى في الممرات التي يمر الرجل، أو الشخص المراد سحره منها. وقد يدفن السحر في موضع كمقبرة أو محل آخر ليؤثر من ذلك الموضع على المسحور.

وقد يستعين بالخرز يسحر عليها، فتحبب المرأة إلى زوجها، وتسمى (التُولة)[1].

وكما يستعمل السحر لإشعال نيران الحب في القلب، كذلك يستعمل لإيقاد البغض والكراهية في النفوس. ففي استطاعة الساحر بما عنده من جنود مجندة أن يلقي البغضاء والكراهية والحقد في نفس أي شخص يود إنساناً آخر، فينقلب مبغضاً حاقداً كارهاً لمن كان يحبه ويعشقه. ومجال هذا الباب واسع جداً للنساء خاصة.

ومن أهم الأعمال التي يعالجها السحرة. إخراج الجن من المجانين. فالجنون هو من عمل الجن. تحل الجنة بالإنسان فتأخذ عقله. ومن هنا قيل لهذا المرض (جنة) و(جنون)[2].

١- جواد علي، ٧٤١/٦-٧٤٢.

٢- تاج العروس: ١٦٤/٩.

ومن واجب السحرة إخراج الجن من هؤلاء المرضى، وهو عمل يقوم به الساحر حتى اليوم، ويكون ذلك بضرب المريض بالعصا لإخراج الجنة منه. أو بسقيه بعض الأشربة السحرية، أو بتدليك جسمه وغسله، وبإدخاله محلاً مظلماً هادئاً يحرق فيه البخور، وبتعليق بعض الغرائم والحجب وما شاكل ذلك لإبعاد الجن عن المجنون وإعادة عقله إليه.

ويداوي الساحر أمراضاً عديدة أخرى، بل كل أنواع الأمراض، وما المرض في نظر القدماء إلا أرواح شريرة حلت في الأجساد أو بجزء منها، فألحقت بها الأمراض. ولن يشفى الجسد أو الجزء المصاب منه إلا بطرد تلك الأرواح. وطرد الأرواح من أعمال السحر. والساحر هو سلف من أسلاف الأطباء. وكلمة (طبيب) العربية هي من هذا الأصل.

فالطب في اللغة السحر، و(المطبوب) هو المسحور، والطابّ هو الساحر يستخدم طبه في الشفاء فالساحر هو طبيب يعالج أشياء عديدة، ثم تخصص الأطباء بالطب، غير أن الأطباء يمارسون حتى في أوربا السحر في معالجة مرضاهم مدة طويلة، إلى أن تطور العلم، وظهر البحث الحديث.

ويقوم أكثر مداواة المرضى بواسطة السحر بالنفث على المريض أو في فمه وبإمساك الرأس أو الجزء المريض، لقراءة شيء عليه يضمن شفاءه، أو بتدليك ذلك الجزء منه. وقد يعطى حجباً وتمائم تشفي المريض من مرضه. والنفث في الفم من العادات الجاهلية القديمة، يقوم به الكاهن والساحر والأب في بعض الأحيان، لاعتقادهم أن ذلك سيلهم الطفل فيعلمه العلم والحكمة والذكاء ويمنحه الصحة الجيدة.

ومن طرق السحر عند الجاهليين، النفث في العقد، وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة:

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ (١)

ويكون ذلك بعقد عقد والنفث عليها(٢). ويقوم بهذا السحر الرجال والنساء. غير أن المفسرين وأهل الأخبار واللغة حينما يذكرون هذا النوع من السحر يذكرون أن

١- سورة الفلق: الآية ٤.

٢- تاج العروس: ١/ ٦٥٠ (نفث).

النساء النفاثات هن اللواتي كنّ يقمن بذلك. أخذوا رأيهم هذا من الآية المذكورة التي تشير إلى بنات (لبيد بن أعصم اليهودي) وكنّ ساحرات.

والمواد التي يستعين بها الساحر لعمل السحر عديدة. أوراق بعض النباتات والملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات يدفنها أو يحرقها أو يذيبها في الماء. وفي كل سحر لا بد أن يشفع الساحر سحره بطقوس أو بحركات خاصة، وبتمتمة تلقي في الروع أن الساحر يقول شيئاً ويخاطب أشخاصاً هم الجن. والتمتمة هي في الغالب كلام غير مفهوم عند الناس، ولكنه عند الساحر وجنوده الجن والشياطين كلام واضح بليغ.

ويعمد السحرة إلى الصور والرموز في سحرهم، ومنهم من كانوا لا يعرفون الكتابة ولا القراءة فيرمزون إلى من يريدون سحره، أو إلحاق الأذى به، أو يصورونه. وقد يشيرون بالصور والرموز إلى الجن والشياطين. وهم في الغالب يدفنون تلك الصور والرموز في المقابر، لأنها من أنسب الأماكن للسحر. وقد عثر على عدد من هذه الإشارات والصور السحرية ومنها ما هو مكتوب بكتابات لها صور بالسحر[١].

والاستعاذة بالجن تفيد أيضاً في نظر الجاهليين في حماية الشخص من أذاهم، فإذا استعيذ بعظيم الجن، استجاب العظيم نداء المستفيد. فكان المسافرون إذا خافوا من طوارق الليل، عمدوا إلى وادٍ ذي شجر، فأناخوا رواحلهم، وعقلوها وخطّوا عليها خطاً ثم نادوا: نعوذ بعظيم هذا الوادي، أو نعوذ بصاحب هذا الوادي.

فيستجيب عندئذٍ عظيم الوادي لنداء المستفيد، فلا يسمح لأحد أن يلحق به أذى. وذكر أن العرب إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنان والسعالي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائذون بسيد هذا الوادي! فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك خفارة[٢].

ولإرضاء الجن وإسكاتها، وتجنب أذاها، قام الجاهليون بتقديم الذبائح لها، فإذا أراد إنسان السكن في بيت جديد، أو استخراج الماء من بئر احتفرها أو من عين

١- جواد علي: ٧٤٤/٦-٧٤٥.

٢- الجاحظ، الحيوان: ٢١٧/٦.

ماء، أو ما شاكل ذلك وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة، يرضي بها الجن، فلا تتحرش عندئذٍ به ولا تصيبه بأذى، لأنه قد تقرب بالذبيحة إليها وبين لها أنه صديق لها، فيعيش عندئذ قرير العين في بيته الجديد، لا يمس عماره بسوء. ويقال لها الذبائح: (ذبائح الجن). وقد نهى الإسلام عن ذبائح الجن. وكان للجاهليين رأي وعقيدة في العين وفي أثرها في الحياة، فهم يعتقدون بأثر العين وإصابتها. ولخطر هذه الإصابة وأهميتها، تفننوا في ابتداع وسائل الوقاية منها، وحماية أنفسهم من أثرها. وقد زعموا أن عيون بعض الناس تصيب، وإنها إن أصابت شيئاً أهلكته، فإن (العين) لا تنتج إلا شراً، وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً.

ولحماية النفس من العين، استعملت الخرز والتعاويذ والرقى. ومن الخرز التي استخدمت في حماية الأطفال من إصابة العين، (الكحلة)، وهي خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم، و(القبلة)، وهي خرزة بيضاء تجعل في عنق الفرس من العين.

و(الودعة)، تفيد في دفع أذى العين عن الإنسان. وذكر أنها مما يقذفه البحر، وهي تتفاوت في الصغر والكبر، وهي خرزة تثقب وتتخذ منها القلائد وللحماية من العين[1].

الكهان:

وفي طليعة بعض الناس الموهوبين، بما لهم من قدرة خفية خارقة وإلهام، الاتصال بالآلهة وبالأرواح، والاستئناس بها والأخذ منها، والحصول على علم غزير منها يتعلق بالمستقبل عامة وبمستقبل كل إنسان خاصة، أو التأثير عليها بصرف الخير إلى شخص ودفع الأذى عنه، وبتوجيه الشر إلى شخص يراد توجيهه إليه وإيذاؤه.

ويقال للاتصال بالآلهة أو الأرواح لمعرفة المستقبل والتنبؤ عما سيحدث: (الكهانة) Divinatior، ويقال لمن يقوم بذلك الكاهن. أما الذي يزعم أن في إمكانه التحكم في الأرواح وتوجيهها الوجه التي يريدها، فيقال له (ساحر) ويقال لعمله (السحر). والكهانة في اللغة العربية تعاطي الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ومعرفة المغيّبات والأسرار.

١- جواد علي: ٦/٧٥٤.

ومن مرادفات الكاهن: (الطاغوت). وذكر بعض علماء التفسير أن الطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه. وقد ذكروا أن الجبت السحر والساحر، بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن[1]. وإن الجبت والطاغوت صنمان، أو أن الجبت الأصنام والطاغوت تراجمة الأصنام، والذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس، أو أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من دون اللّه أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان المعظم من حجر أو إنسان أو شيطان. وإذا كان ذلك كذلك، وما كانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها كانت معظّمة بالعبادة من دون اللّه، فقد كانت جبوتاً وطواغيت، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية اللّه، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كانا مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك باللّه.

والتكهن عن المستقبل والتحدث عن الماضي، موضوع له فروع عديدة، وقد عد علماً من العلوم عند كثير من الأمم، وألفوا فيه وتنبؤ الأصنام هو نوع من هذه الأنواع. ويدخل في التكهن التنبؤ بواسطة وسيط: مكالمة صنم، أو (تابع) أي (رئي)، وقراءة كبد الشاة وقراءة أعضائها كما كان عند البابليين وعند المصريين. والتكهن بحركات الطيور، وتفسير الأحلام، وتفسير بعض الظواهر الطبيعية وما شابه ذلك وكل هذه كانت معروفة عند الجاهليين.

وليس من الضروري أن يكون التكهن بتكليم الصنم حتماً وفي المعبد في الضرورة، فقد كان من الكهان من يقيم في بيته ويتكهن مع ذلك للناس، ينطق بما يوحى إليه وبما يشعر به.

وقاصدوه يرون أن فيه قوة خارقة وقابلية لتلقي الوحي، من تلك القوة التي يتصورونها على هيئة شخص غير منظور يلقي إلى الكاهن الوحي، فينطق بما يناسب المقام وبما يكون جواباً على الأسئلة التي توجه إليه. ويطلقون على ذلك الشخص الخفي اسم (تابع) أو (صاحب) أو (مولى) و(ولي) و(رئي)، لأنه يكون تابعاً وصاحباً للكاهن، يتبعه ويصاحبه ويلقي إليه (الرئي). يكشف له الحجب ويأتيه بالأسرار. فهو (حاز) و(حزاء) و(حازية) و(الرائي) في العهد القديم.

١- تفسير الطبري: ٥/ ٨٤.

وكان من رأي الجاهليين أن هناك وحياً يوحي إلى الكاهن بما يقوله، وقد قالوا لذلك المصدر الذي يوحي إليه: (شيطان الكاهن)، كما قالوا للمصدر الذي يوحي إلى الشاعر بوحي شعره: (شيطان الشاعر)، ذلك لأن شيطان الكاهن يسترق السمع ويلقي به إلى الكهنة. يسترق من السماء فيأتي به إلى الكاهن ويلقي ما استرقه إليه فيلقي الكاهن ما ألقى عليه شيطانه إلى الناس، وبذلك يتنبأ لهم[1].

العرّاف:

ويطلق بعض علماء اللغة على الكاهن (العرّاف)، فهو عندهم مرادف للكاهن. وتعتمد العرافة - كما تعتمد الكهانة - على الذكاء والتفرس في الأمور والتجارب. وقد خصصها أكثر الناس في الإسلام بالتوصل إلى معرفة الأشياء المفقودة. والعراف بما عنده من الملكات والمواهب المذكورة، يقضي ويتنبأ للناس فيما يراه، ومن أشهر العرافين في الجاهلية: عرّاف اليمامة، وهو (رباح بن كحلة) (رباح ابن عجلة) (رباح بن كحلة) المذكور في الشعر، وعرّاف نجد وهو الأبلق الأسدي، والأجلح الزهري، وعروة بن زيد الأسدي[2].

وفي عرّاف اليمامة ورد قول الشاعر:

فقلت لعرّاف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب

وقد كان أهل الجاهلية يعرضون صبيانهم على (العرافين) لإخبارهم عن مستقبلهم.

وكانت الأسواق مثل سوق عكاظ موئلاً لهم. فكان العراف فيها يجلس حيث يأتيه الصبيان مع ذويهم فيقول عنهم ما يجول بخاطره، وذلك بالتفرس في وجه الصبي، ومقارنة ذلك بما حصل عليه من تجارب في هذا الباب.

القيافة والفراسة والعيافة:

وفي اللغة العربية كلمة قديمة أخرى لها صلة بموضوعنا هذا، هي (القيافة). ويقصد بها التنبؤ والإخبار عن شيء بتتبع الأثر والشبه. وتدخل في ذلك قيافة آثار الأقدام والأخفاف والحوافر للاستدلال منها على أصحابها، وتعيين النسب في حالة

١- جواد علي: ٦/٧٥٥-٧٥٦.

٢- الجاحظ، الحيوان: ٦/٢٠٤.

الشك فيه. وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن. وقد اشتهرت بها (بنو مُدلج) خاصة، حتى قيل للقائف (مدلجيّ) بسبب هذا الاختصاص، وبنو لهب، وأحياء مضر.

وأما الفراسة، فتكون بالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وأقواله على صفاته وطبائعه. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنها من الكلمات المعربة التي أخذت من (بني إرم)، وإنها أحدث عهداً من لفظة (القيافة) التي هي من الكلمات العربية الجاهلية. وقد توسع في معناها وألف فيها الكتب في الإسلام وتبحر فيها بعض أئمة الفقهاء مثل الشافعي.

وأما العيافة فهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها، وقراءة بعض أحشائها. وقد اشتهرت (بنو أسد) بالعيافة فقصدها الناس للأخذ منها.

والزجر العيافة. وهو يزجر الطير يعافها. وأصله أن يرمي الطير بحصاة ويصيح فإن والاه في طيرانه ميامنة تفاءل به أو مياسرة تطير. وهو ضرب من التكهن. وإنما سمي الكاهن زاجراً، لأنه إذا رأى ما يظن أنه يتشاءم به زجر بالنهي عن المضي في تلك الحاجة برفع صوت وشدة[1].

الاستقسام بالأزلام:

ومن طرق التنبؤ الاستقسام بالأزلام ويقابل ذلك ما يقال له (كسيم) (كسم) في العبرانية. وهي طريقة معروفة عند البابليين كذلك وعند غيرهم من الشعوب.

وقد عرّف أهل الأخبار (الأزلام): إنها السهام التي كان أهل الجاهلية يستقيمون بها. وعرفوا (الزلم)، إنه السهم، وإنه القدح المزلم. وعرفوا القدح: إنه السهم قبل أن ينصل ويراش. وأن القدح: قدح السهم، وجمعه قداح، وصانعه قداح. وقد فسر بعض العلماء الأزلام بأحجار بيض تشبه أحجار الشطرنج، كما جعل بعض آخر تلك السهام في مقابل (الكعاب) التي يستعملها الروم والفرس في الاستخارة. وذكر بعض آخر أن (الأزلام): سهام كانت لأهل الجاهلية مكتوب على بعضها: أمرني ربي، وعلى بعضها: نهاني ربي، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً ضرب تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه أمرني ربي مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه نهاني ربي لم يمض في أمره.

١- جواد علي: ٦/٧٧٤-٧٧٥.

وذكر أن الأزلام التي كانوا يستقسمون عليها غير قداح الميسر، وإنها قداح الأمر والنهي لا قداح الميسر.

وذكر أن أهل الجاهلية كانوا يقيمون وزناً كبيراً للاستقسام بالأزلام لاعتقادهم أنه يحكي إرادة الأرباب ويتحدث عن مشيئتها. لذلك كانوا لا يفعلون فعلاً ولا يعملون عملاً إلا بعد أخذ رأيها بالاستقسام. فإن جاء أمر فعلوا، وإن جاء نهي امتنعوا[1].

وكان للكهان والعرافين أسلوبهم الخاص في الحديث مما يكون له أثره في نفس السامعين، فهم يطلقون الكلام في شكل نثر مسجوع أو شعر منثور، فهم من هذا الوجه أشبه بالشعراء في الجاهلية. فمما ينسب إلى «طريفة» الكاهنة، قولها: «إن الشجر لتالف وسيعود الماء لما كان في الدهر السالف»، و«أجل إن لي الويل، وما لك فيها من نيل، فلي ولك الويل، مما يجيء به السيل». ومما ينسب إلى سطيح الكاهن، قوله: «والضياء والشفق، والظلام والفسق، ليطرقنكم ما طرق» و«أمر يسد النقرة، ذو حبسة في الوجرة، وحرة بعد حرى، في ليلة قرّه»، و«ما كان من العبر الأقمر، والظليم الأحمر، والفرس الأشقر، والجمل الأزور».

وهكذا يمكن القول إنه كانت هناك علاقة ما بين الكهانة والعرافة والشعر، وبخاصة أن كثيراً من أخبار كهان الجاهلية وعرافيها، كما هو الحال بالنسبة لأخبار العرب وأيامها، وصلتنا عن طريق الشعراء[2].

اللغة والشعر:

وبفضل هؤلاء الشعراء تكونت مدرسة شعرية قبل الهجرة بنحو قرن أو قرن ونصف، كانت لها موضوعاتها التقليدية التي تعالجها، كما كانت لها أوزانها وأساليبها الشعرية، ومن أشهر القصائد التي وصلت إلينا من هذه الفترة هي المعروفة بالمعلقات التي يتراوح عددها ما بين الستة والعشرة.

ويرى الأستاذ جويدي أن الأدب الجاهلي كان، أولاً وقبل كل شيء أدباً شعرياً، وأن حياة القبائل العربية المضطربة هي التي عملت على تطور هذا الشعر. ففي أول الأمر

١- جواد علي: ٧٧٨/٦.

٢- د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦، ص ٣٣٠-٣٣١.

كان هناك نوعان من الشعر: أولهما لا يكاد يستحق تسميته بالشعر، وهو ما كان يعرف بـ «الحجي» وهو نوع من الأدب الشعبي، والآخر هو القصيد من النوع الأدبي المتقن.

ولقد أثبت جولد سيهر أن الشاعر كانت له مكانة مرموقة في القبيلة فالشاعر عند العرب القدماء كان يعني «الذي يعرف» أي من لديه معرفة أكثر من غيره من أبناء القبيلة. وهذه المعرفة يدين بها للإلهام الذي يأتيه عن طريق الجن الذي يحل فيه. وعن هذا الطريق فهو يملك قوة خفية يستطيع بها أن يعجل تدمير الأعداء بما يطلقه ضدهم من اللعنات. وبناء على ذلك فهو شخصية لها صفات إلهية، وهو ساحر مخيف مثله في ذلك مثل الكهان والعرافين، مما سبقت الإشارة إليه. ويؤيد ذلك أن الفعل نشد يعني تلاوة الشعر، كما يعني الرجاء باسم الله. وإطلاق اللعنات على الأعداء من جانب الشاعر كان له أهمية لا تقل عن شجاعة المقاتلين، فالمفروض أن اللعنة لا تخيب لأنها صادرة من الجن. وكان لإطلاق اللعنة طقوس خاصة كأن يخلع الشاعر أحد نعليه، ويغطي وجهه بأكمام ردائه، ويشير عند إطلاق اللعنة بالإصبع السبابة نحو الشخص الذي يراد إصابته باللعنة، وهذا هو السبب في أن أطلق على الإصبع الذي يشار به اسم «السبابة»، أي الذي يسب ويجرح.

وفي الأصل كان الحجي ينشأ في نثر منظوم أو في سجع، ومنه نشأت أقدم أوزان الشعر الشعبي وأسهلها، وهو الرجز. والمثل لذلك هو الشكل القديم من اللعنات الشائعة، مثل «اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم واحداً». وإلى جانب هذا الشعر الشعبي البسيط، القليل الأبيات نما الشعر الأدبي الكبير، وهو شعر القصيدة، الذي بلغ الذروة في قصائد القرن السادس الميلادي. ومن المعروف أن لغة الشعر الجاهلي كانت نفس اللغة في كل أرجاء جزيرة العرب، فمنها يتكون نسيج قصائد امرئ القيس الكندي وهو اليمني الأصل، وقصائد النابغة الذبياني وهو المضري، وكذلك أشعار عمرو بن كلثوم التغلبي، وهو من ربيعة. وهذا لا يفترض عدم اختلاف لهجات القبائل التي كانت تتكلمها، وذلك أن الشعر الشعبي كان يختلف بعض الشيء عن لغة الحديث. وبناء على ذلك تصبح لغة القصيد لغة شعرية مصطنعة أو لهجة لها قوالبها المستقرة أو أشكالها الثابتة. ولا شك أن تكون هذه اللغة الشعرية

تطلب الكثير من الجهد والوقت. ويرى جويدي أنها نشأت وسط الصراعات التي كانت تقوم بين القبائل (أيام العرب)، ويدلل على ذلك بأن مهلهلاً أخا كليب، الذي يؤكد الكتاب العرب أنه كان أول من أنشأ القصيدة، كان من أبطال حرب البسوس. كما كانت لامرىء القيس الكندي أعماله الثأرية في بني أسد الذين قتلوا أباه وضيعوا ملكه. هذا كما كان إنشاد الشعر في سوق عكاظ، على مسافة ثلاثة أيام من مكة، بين الطائف ونخلة، له آثاره التي لا تنكر على تطور القصيدة العربية، التي وصلتنا في شكلها النهائي المنتظم والمحبوك.

وعن طريق هذه القصائد الغزلية الرقيقة التي تعرف بالنسيب وصلتنا معلومات عن معالم بعض ديار العرب عندما كان يصف الشاعر وهو في غمرة أحزانه لفراق محبوبته، مساكنها التي أصبحت، بعد رحيلها، خراباً، وأطلالاً. مثل:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقفت فيها أصيلالاً أسائلها ... عيت جواباً وما بالربع من أحد

ومع أن الحب أو الغزل كان من الموضوعات الشائعة في هذا الشعر العربي القديم، حتى أصبح الغزل هو البداية الطبيعية لأي قصيدة، مما دعا المتنبي إلى أن يقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكلّ فصيح قال شعرا متيم

فقد كان هناك نوع من الشعر لا يوجد فيه النسيب، وهو شعر الرثاء إذ لا تتناسب المقدمة الغرامية المعتادة فيه مع موضوع النشيد الجنائزي وما يقتضيه من مشاعر الحزن.

وهكذا بلغ الشعر العربي في القرن السادس الميلادي درجة كبيرة من الإتقان مما يثبت تقدماً ثقافياً جيداً. ولقد كانت قصائد هذا الشعر تنقل في أول الأمر شفاهاً ثم أنها دونت بعد ذلك، والمثل لذلك المعلقات. أما عن الموضوعات التي كان يتناولها الشاعر، فهي: الحب والغزل والرياضة من الصيد والقنص، وأيام الحرب والقتال ثم الليالي التي كان يقضيها الشاعر في شرب الخمر[1].

١- د. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦، ص ٣٣٣-٣٣٤.